إلى بعض سنن الله في خلقه

إعداد

مركز المربي
للاستشارات التربوية والتعليمية

لمحات
إلى بعض سنن الله في خلقه

لمحات إلى بعض سنن الله في خلقه

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

رقم الطبعة	الأولى
سنة الطبع	١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
عدد الصفحات	٤٨ صفحة
المقاس	١٤ × ٢٠
رقم الإيداع	٢٠١٨/٢٥٧٠٦م
الترقيم الدولي	I.S.B.N: 978-977-6546-93-5

مركز المربي للاستشارات التربوية والتعليمية

markaz.almurabbi@gmail.com

لمحات

إلى بعض سنن الله في خلقه

إعداد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن اتبع سبيلهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، أما بعد، فإن مما ينبغي أن يُعنى به ولا سيما في هذا الزمن معرفةَ سنن الله تعالى في الأمم والأفراد.

وهذا كلام مختصر فيه إشارة لطيفة إلى بعض السنن التي يقوم عليها نظام الحياة لعلها تعين القارئ على التأمل في هذا الباب الخطير وتكون مدخلًا لقراءة ما تُوسِّع فيه من مؤلفاتٍ، ككتاب السنن الإلهية في الأمم والأفراد لمجدي عاشور، والسنن الإلهية في الأمم والجماعات لعبد الكريم زيدان، وسنن الله في الأمم لحسن ابن صالح الحميد، ومفهوم السنن الإلهية لحازم زكريا.

سائلين الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به والله الموفق وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا به.

مركز المربي
للاستشارات التربوية والتعليمية
المدينة المنورة
المشرف العام
د. يحيى بن إبراهيم اليحيى

إن خضوع الكواكب والنجوم في بزوغها وأفولها لقوانين ثابتة مطردة لا يخفى على عاقل، هذا النظام المطرد دعا الإنسان إلى التأمل في خضوع كثير من الكائنات الحية لقوانين وسنن مطردة، حتى كاد يشمل كل جوانب الحياة، فأدى ذلك إلى كشف قوانين العلوم الطبيعية، كالفيزياء والكيمياء والرياضيات. وأيقن العلماء والمفكرون ولا سيما المسلمون منهم أن الأمور لا تمضي في الناس جزافًا، وأن الحياة لا تجري في الأرض عبثًا، فإنّ هناك نواميسَ تتحقق، لا تتبدل ولا تتغير.

يتكرر في القرآن تسمية القوانين الطبيعية آيات وتسمية النصوص القرآنية المعبرة عن القوانين الشرعية آيات، وكذلك توصف في القرآن القوانين الطبيعية مثلما توصف القوانين الشرعية بأنها سنن الله، وقد وصف الله القرآن بأنه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، وقال عن الكون: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾، فنفيُ الاختلاف في القرآن مثل نفي التفاوت في الخلق، وكلاهما يعني تمام التناسق والانسجام، وكونُ القرآن والكون على تمام التناسق والانسجام دليلٌ على وحدة مصدرهما، ويقوى التشابه بين النوعين من القوانين إلى درجة يتحير عندها الناظر في القرآن: أي النوعين هو المراد بعبارة آيات الله أو سننه؟

وتمام الأمر وكماله في الجمع بين السنن الكونية الماضيةِ على الكون وبين السنن التشريعية الهادية إلى العلم والعمل.

والسنة هي الطريقة والعادة، قال الله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾.

وسنة الأولين إنزال العذاب على الذين كذبوا رسلهم من الأمم قبلهم، فجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم، وبيَّن أن عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل عادة لا تتبدل ولا تتحول.

قال ابن تيمية: «والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالاعتبار، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾. والاعتبار أن يُقرن الشيء بمثله فيُعلم أن حكمه مثل حكمه... فإذا قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي مثلَ جزائهم».

والقوانين التي يَرِد ذكرها في القرآن الكريم تبيِّن أن حدوث نوع من المقدمات يستلزم نوعًا محدَّدًا من النتائج يرتبطان ارتباط العلة بالمعلول وجودًا وعدمًا.

منزلة معرفة السنن

القرآن الكريم يَرُدّ المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، والآيات المتعلقة بالسنن في القرآن الكريم مبثوثة في القصص والأمثال تبيِّن أن اتباع نهج الرسل وما دَعَوْا إليه هو سبيل النصر والنجاة من عذاب الله،

وأن علل الأمم وأمراضها من شِرْك وظلم وبغي وتكبر وفساد في الأرض هي أسباب الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

فمعرفة سنن الله جزءٌ من معرفة الدين ولها أثر عظيم في تقويم الاعوجاج لأنها تبصر بكيفية السلوك الصالح في الحياة لتعرف الأمم اللاحقة مصير الأمم التي غرقت في الشهوات وحادت عن الفطرة؛ حتى لا تقع في الأماني الكاذبة، وبذلك تنجو مما حذر الله منه وتظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين.

وكثر في القرآن التنبيه إلى حكمة الجمع بين خلق ما في السماوات والأرض وما بينهما بالحق وبين جزاء المكلَّفين على أعمالهم، كقول الله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

والمقصود من دلالة الاقتران في تلك الآيات إيقاظُ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السماوات والأرض وما بينهما من

دقائق المناسبات وإعطاءِ كل مخلوق ما به قِوامه، فإذا كانت تلك سنةَ الله في خلق العوالم استُدِلّ بذلك على أن تلك السنة لا تتخلف في ترتب المسبَّبات على أسبابها فيما يأتيه المكلفون من الأعمال.

والسنن الإلهية قسمان:

١- السنن الخارقة، وهي القوانين الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر. وهذه الخوارق من سنة الله، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهده الناس.

٢- السنن الجارية، وهي التي نراها منتشرة في الكون وفي سلوك الإنسان وغيره من المخلوقات وهي نوعان: نوع يحكم الظواهر الطبيعية بحيث لا تشذ ظاهرة عن القانون الذي يحكمها، ونوع يضبط سلوك الناس الصادر عنهم باختيارهم. وهذا النوع يجري على مقتضاه فعلًا أو تركًا صلاحُ أحوال الناس أو فسادُها.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الله أراد لهذه الأمة أن تنتهج السبيل الذي اختاره لها، أي: أن تسلك في حياتها سلوكًا مستقيمًا يرتكز على

سنن الله الجارية، ولذلك كانت السنن الجارية هي الأصل، والسنن الخارقة استثناء منها، يمدّ الله بها من يشاء من عباده.

و على كل مَن لم يعمل على مقتضى سنن الله الجارية أن يُفيق من سُباته قبل أن تدور عليه رحى القانون الإلهي فيخسر الدنيا والآخرة: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

وقد تقع السنن الخارقة حيث لا مجال للسنن الجارية، كما حصل في غزوة بدر، فلم يكن المسلمون قد استوفوا الأسباب المعتادة، ولكنهم لم يقصروا في طلب واحد منها لأمور حالت بينهم وبين إدراك بعضها، ومَن كانت هذه حالَه فقد صار قريبًا من أن تُخرَق له السنن الجارية.

سُنة الأخذ بالأسباب

القرآن يرشد إلى أن المسبَّبات مترتبة على أسبابها.

ومن شواهد ذلك قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، فقد تكفل الله برزق مخلوقاته، ولكنه جعل طريق الرزق في الأخذ بالأسباب كما ورد في الحديث: «**إِنَّ روح القدس نَفَثَ في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتَّقُوا الله وأَجمِلُوا في الطَّلَب**».

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ في سنة التيسير.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في سنة النصر.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ في سنة الإهلاك.

وهذا القانون عامٌّ شامل لكل ما في الكون، ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسبَّبات».

وقال ابن القيم: «وقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كلَّ ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سببٌ لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسبَّبات، والشرع كله أسباب ومسبَّبات، والمقادير أسباب ومسبَّبات، والقدر جارٍ عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر».

وقال ابن تيمية: «فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وليس شيء من الأسباب مستقلًّا بمطلوبه، بل لا بد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولابد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة

له، والطعام والشراب لا يغذِّي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى».

الأسباب والقضاء والقدر:

يتبين باستقراء الآيات الصريحة القاطعة ارتباطُ الأسباب بالقضاء والقدر، ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾. فقوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ يعني: إن كان الله قضى فيكم قضاءً يُصِبْكم مجتمعين أو متفرقين، فإن المقدور كائن، والحذر لا ينفع من القدر.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد الأمة في شأن القدر إلى أمرين هما سببا السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر.

يقول الغزالي: «فإن قلتَ: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ فاعلم أن من القضاء ردَّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سببٌ لرد

البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾».

ويؤيد ذلك ما ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل له: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هي من قدر الله**».

وكيف يترك الإنسان أوامر الله تعالى ويرتكب المناهي، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صح ذلك لبطلت التكاليف، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب ودعوة الإنسان إلى دين الله ووعده بالثواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشرِّ باطلًا، لا يتفق مع حكمة الخالق سبحانه.

الأخذ بالأسباب من التوكل:

التوكل من عمل القلب والأخذ بالأسباب من عمل البدن، وكلاهما مأمور به، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعقلها، وتوكل**».

قال الغزالي: «فإن قلتَ: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذرًا من العدو، وأغلق بابه حذرًا من اللص، وعقل بعيره حذرًا من أن ينطلق، فبأيِّ اعتبارٍ يكون متوكلًا؟ فأقول: يكون متوكلًا بالعلم.. وهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه، فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذٍ سلاحه يقتل أو يغلب، فلا تتكل على هذه الأسباب أصلًا، بل على مسبب الأسباب... ».

وقال الإمام أحمد: «الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بيَّنها الله تعالى لعباده وأذن فيها، وهو يعتقد أن المسبِّب هو الله عَزَّوَجَلَّ، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله تعالى، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب، فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب».

سنة الجزاء من جنس العمل

من سنة الله تعالى أنه يعامل خلقه بجنس عملهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وقد ورد في الكتاب والسنة في أكثر من مائة موضع أن الجزاء من جنس العمل في الخير وفي الشر، كما قال تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾.

ومن هذه المواضع:

١ - سنة الله فيمن بغى:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾، ففي الآية ذم للبغي في أوجز لفظ، ومعنى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي: وبال البغي عليكم، ولا يجني ثمرته إلا أنتم.

وورد في هذا المعنى أحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منها: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**». وقال ابن عباس: «لو بغى جبل على جبل لدُكَّ الباغي».

٢- سنة الله فيمن نقض العهد:

قال الله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، فالعبد هو الخاسر حين ينكث وينقض العهد، فيتعرض لغضب الله سبحانه وعقابه على النكث الذي يكرهه الله ويمقته؛ فإن الله يحب الوفاء والأوفياء.

٣- سنة الله فيمن مكر بالناس:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، والمكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو ضربان: محمود، ومذموم. فالمحمود أن يُتحرى به فعل جميل. والمذموم أن يتحرى به فعل قبيح، وهو المعنيّ في الآية.

٤- سنة تسليط الظالم على مثله:

يتحقق هذا النوع بأن يسلَّط الأكثر فسادًا على الأقلِّ منه في فساده بمقتضى سنة الله في ابتلاء أهل الباطل بمثلهم أو بمن هو أشدُّ منهم في باطلهم، والشاهد على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾، أي: نسلِّط بعض الظالمين

على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما قال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينتقم الله من الظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما».

قال ابن عاشور: «المقصود من الآية الاعتبار والموعظة، والتحذير من الاغترار بولاية الظالمين...، وبيان سنة من سنن الله في العالمين».

وقال الرازي: «الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلِّط عليهم ظالمًا مثلهم، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم».

وقال القرطبي: «ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق وغيرهم».

وقال السعدي: «ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنْعهم الحقوق الواجبة وُلِّيَ عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا

من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين».

٥- سنة نزع النعمة ممن منعها مستحقها:

سنة الله تعالى في هذا أن ينقلب مقصود المانع عليه، ويعامله الله بنقيض مقصوده، فيأخذ الله ما بين يديه من النعمة ويسلبه ما كان سببًا لمنع الخلق حقوقهم.

ويتضح ذلك جليًّا في قصة أصحاب الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، فأصحاب الجنة لما عزموا على منع الفقير حقه عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء.

ثم بيَّن الله أن حكمه هذا سنة جارية في خلقه، وقضاءٌ عامٌّ لمن وقع في مثله، فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾، قال السعدي: «كذلك العذاب: الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه أحوج ما يكون إليه.

٦- سنة الخلف على من أنفق في الخير:

ضمن الله لمن بذل خيره لغيره أن يخلفه له، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾، وقال سبحانه في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم، أَنفِق أُنفق عليك**».

٧- سنة تيسير الله لمن يسَّر على عباده:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

قال الرازي: «﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة. واعلم أن هذه الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة. ولا ينبغي للعاقل أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور إلى قلبه». ويؤكده قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من فرَّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»**.

٨- سنة معاملة الله العبد بمثل ما يعامل به العبد الناس:

قالت خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل عليه جبريل وخشي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نفسه: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»، فقد عقلت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا سنة الله تعالى في خلقه وعادته فيهم.

وقال ابن القيم: «ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة». وقال مبيِّنًا ذلك: «فمن عفا عفا عنه ومن غفر غفر له ومن سامح سامحه ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاقّ شاق الله تعالى به، ومن مكر مكر به».

سنـــة الابتـــلاء

الابتلاء في الأصل: الاختبار والامتحان، والبلاء يكون بالخير والشر قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الدنيا دار ابتلاء وتكليف، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ومن حكمة الله تعالى أنه نوَّع الابتلاء لتكثر بذلك طرق الإنابة والرجوع إلى الله، قال ابن كثير: «نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم تارة أخرى، فننظر مَن يشكُر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، والمراد بالشر والخير: الشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والمراد: مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف فيما بعد، أي: بعد بلوغه طور العقل والتكليف.

والأصل في الابتلاء هو إظهار معادن المكلَّفين، والتفرقة المشاهَدة بين المطيع والعاصي والمؤمن والكافر، قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾.

وقد يكون الابتلاء لتحذير الأمم والأفراد وإنذارهم حتى يرجعوا عن المعاصي، والآيات الواردة في هذا الغرض كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾، وذلك الرجوع والالتجاء إلى الله هو غاية التوحيد والعبودية المرادة من العباد.

وتنوُّع الابتلاء بين الشدة والرخاء للإنذار والتحذير في قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، أي: عاملناهم معاملة المبتلي المختبر بالحسنات، وهي النعم والخصب والعافية، والسيئات، وهي الجدب والشدائد، لعلهم يتوبون عن نقض العهد وعن العصيان.

١- الابتلاء بالنعم:

من الابتلاء ما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان مما تستقيم به حياته، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، ومظهر الابتلاء في هذا التزيين أنه يثير الشهوات، فيفضي إلى تغالب الناس واعتداء بعضهم على بعض، وذلك هو الذي أوجد حاجتهم إلى الشرائع لتضبط أحوالهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾، أي: اختبار وابتلاء.

وقد ورد معنى فتنة الأموال والأولاد في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، والمقصود أن الأموال والأولاد سبب فتنة، سواء سعَوْا في فعل الفَتْن أم لم يسْعَوْا؛ فإن الشغل بالمال والعناية بالأولاد فيه فتنة تشغل عن بعض العبادات.

والابتلاء بالنعم أشدُّ غالبًا من الابتلاء بالنقم، فحالة الانكسار الناتجة عن الابتلاء بالمكروه من أسباب إقبال العبد على ربه جَلَّ وَعَلَا. وأما النعم فهي من أسباب الاستعلاء والطغيان قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾، فالابتلاء بالنعم يستلزم اليقظة والحذر من السقوط في مهاوي الغرور والغفلة.

إن نعمة المال والرزق كثيرًا ما تقود إلى فتنة البَطَر وقلة الشكر والسرف أو البخل، ونعمة القوة تقود إلى الطغيان والجور والتطاول على الحق وعلى الناس، ونعمة الذكاء تقود إلى الغرور. ولا تكاد تخلو نعمة من فتنة.

٢- الابتلاء بالمصائب والشدائد:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ كموت والأقارب والأحباب ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي:

لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها». فالابتلاء تربية للمسلم على تحمُّل الشدائد.

وحين أنزل الله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ شقَّ وقعها على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية؟ فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟**» قال: بلى يا رسول الله. قال: «**فهو مما تُجزون به**».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**». ولذا قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس».

وهذا النوع من الابتلاء من رحمة الله سبحانه وهو أن يتقدَّم العذابَ المهلكَ عذابٌ أهونُ منه للتذكير والتحذير لمن يريد الرجوع إلى الرشد والصواب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

قال ابن القيم: «فلولا محنُ الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمن رحمة الله أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حميةً له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه».

سنــة إهلاك الأمـم

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، أي نزل وأحاط بهم العذاب، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾، والمقصود بالرجز المرادف للإهلاك ما كان مقيَّدًا بأنه من السماء، وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾.

ويجري إهلاك الأمم بأسباب، منها:

١- الظلم:

ورد في كثير من الآيات ربط الهلاك بالظلم، فمنها قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

٢- البطر:

قال الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، وبينت هذه الآية أن بطر النعمة وعدم شكر الله عليها سبب هلاك القرى.

٣- الاستكبار:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ

وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

٤- الترف:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾.

الترف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان. والظلم والإجرام يظهر في الكبراء والرؤساء، ويسري بالتقليد إلى الدهماء، فيعم الفسق فإذا لم يأخذ الصالحون على أيدي المفسدين سلط الله المترفين عليهم فيكون ذلك سببًا لهلاكهم جميعًا.

وهؤلاء المترفون إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها.

سنة النصر والتمكين

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، فمن اتَّخذ أسبابَ النصر والتمكين دالَت له الدنيا بمقتضى سنة الله في خلقه، ومن أعرض عنها دالت عليه الحياة، فيصير مهزومًا مقهورًا تابعًا.

وقال الله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

وهذا التدافع لا بدَّ منه؛ لأنهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر ودفعه وإزالته، أو إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة.

والدفاع عن الدين من السنن الكونية التي أقام الله عليها دعائم العمران والاستقرار في الأرض قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال الزمخشري: «ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بِعَيْث الكفار فيها وقتل المسلمين، أو: لو لم يدفعهم بهم لعمَّ الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض».

وبهذا التدافع يتحقَّق التوازن بين الخلق، ولذلك امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه بهذه السنة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وسنة النصر والتمكين تجري بأسباب مادية ومعنوية والعلاقة بينهما تتكامل.

أولًا: عوامل النصر المعنوية، منها:

١- الإيمان بالله تعالى والاستقامة على شرعه:

قد وردت في ذلك آيات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾. قال ابن عاشور: «إن في إطلاق اسم الأرض ما يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح».

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ووعْدُ الله مذخور لكلِّ من يقوم بالشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطئ الاستخلاف والتمكين لتخلُّف الشرط، حتى إذا عادت الأمة إلى الوفاء بهذه الشروط تحقَّق وعد الله الذي لا يتخلَّف ولا تقف في طريقه أية قوة، بل هو سنة ماضية كتعاقب الليل والنهار.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

٢- الصبر والتقوى:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

٣- الإخلاص في الجهاد:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، والمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيله إعلاءً لكلمة الحق، لا ليستعلوا في الأرض، أو ليصيبوا غنيمة، أو حميةً لبلد أو لقوم. وفي الحديث: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**».

ومن الإخلاص في الجهاد ألا يتهاون المسلمون في إعداد القوة التي أمرهم الله بإعدادها واستخدام كلِّ ما يعين على تحقيق النصر.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ

﴿ٱلْأُمُورِ﴾، فالتمكين في الأرض إنما يعني وضع سلطان الشريعة في أيديهم، وإعطاءهم وسائل التنفيذ بالقوة القاهرة لما يجب تنفيذه بالقوة كالجهاد وإقامة الحدود وزجر المنحرفين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.

٤- الشـــورى:

قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير أصحابه كما في بدر وأُحُد والخندق وغيرها.

والرشد لا يغني عن الاستشارة، ومن حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العقلاء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زلّ والعقل الفرد ربما ضلّ.

ولا يستشار إلا أهل الشأن من ذوي الإيمان والمعرفة. وقد سئل الحسن البصري عن قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تستضيئوا بنار المشركين**»، فقال: «أراد: لا تستشيروا المشركين في أموركم ولا تأخذوا برأيهم».

٥- كثرة ذكر الله:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، يقول الطبري: «وهذا تعريفٌ من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به السيرةَ في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم... ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾، يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾، يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصرَ والظفر عليهم، وعن قتادة قال: افترَض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِّراب بالسيوف». وقال ابن عاشور: «يأمرهم بما يهيء لهم النصر في المواقع كلها، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إياهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب».

٦- تجنب أكل الربا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

وفي الحديث : «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**».

ثانيًا : أسباب النصر المادية، منها :

١ - الاستعداد وتجهيز القوة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾، أي: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، والرأْي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم شر أعدائهم.

والإعداد لا يقتصر على القتال، بل إن من لوازمه إلقاء الرهبة في قلوب الأعداء، الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون، ومن وراءهم ممن لم يجهروا لهم بالعداوة.

٢- بذل المال:

اقترنت الدعوة إلى الإعداد للقتال بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، أي: إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مالٍ واستعدادٍ فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية «النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله، لأنه سبب الهلاك».

قال ابن عاشور: «ووجه الحاجة إلى هذا الأمر تنبيهُ المسلمين... على أنَّ تعهُّد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم

أخذ العدة المعروفة، فلا يحسبوا أنهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل النصر التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبباتها... فتطلُّب المسبَّبات دون أسبابها غلطٌ وسوءُ أدبٍ مع خالق الأسباب ومسبباتها.

فالمسلمون إذا بذلوا وسعهم، ولم يفرِّطوا في شيء، ثم ارتبكوا في أمرٍ بعد ذلك فالله ناصرهم، ومؤيدهم فيما لا قِبَل لهم بتحصيله، ولقد نصرهم الله ببدرٍ وهم أذلة، إذ هم يؤمئذٍ جملة المسلمين، وإذ لم يقصِّروا في شيء. فأما أقوامٌ يتلفون أموال المسلمين في شهواتهم، ويفوتون الفرص وقت الأمن فلا يستعدون لشيءٍ ثم يطلبون بعد ذلك من الله النصر والظفر فأولئك قوم مغرورون، ولذلك يسلِّط الله عليهم أعداءهم بتفريطهم، ولعله يتداركهم في خلال ذلك بلطفه فيما يرجع إلى استبقاء الدين».

٣- اختيار القيادة المؤهلة:

من أهم خصال القيادة الصالحة في ميدان القتال القوة العلمية والجسمية، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿.

فبالعلم يعرف القائد سياسة الناس وخطط الحروب، وضعف العدو وقوته، وما يناسب كل حال من الحالات في النصر والهزيمة والقوة والضعف، والترجيح عند اختلاف أهل الشورى.

وبالقوة يستطيع القيام بأعباء القيادة والثبات في مواقع القتال فيكون بثباته ثبات نفوس الجيش.

قال الأفوه الأودي:

لا يَصلح الناس فوضى لا سَراة لهم

ولا سَراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة

ولا عماد إذا لم تُرسَ أوتادُ

وقال لقيط بن يعمر الإيادي:

وقلدوا أمركم لله دركمُ

رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلِعا

لا مترفاً إن رخاءُ العيش ساعده
ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خَشَعا

٤- الاجتماع على الحق:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، قال ابن عاشور: «ثم أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع».

وإذا فشا النزاع أفضى إلى تفرق المسلمين وتربص بعضهم ببعض الدوائر، وأن يشتغلوا باتقاء بعضهم بعضًا، وهذا يؤدي إلى وهن أمر الأمة وزوال قوتها.

٥- الثبات عند ملاقاة العدو:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

قال ابن عاشور: «والَّذي أرى في فقه هذه الآية أنَّ ظاهر الآية هو تحريم التَّولِّي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة، بحيث إنَّ المسلمين إذا توجَّهوا إلى قتال المشركين أو إذا نزل المشركون لمقاتلتهم وعزموا على المقاتلة، فإذا التقى الجيشان للقتال وجب على المسلمين الثَّبات والصَّبر للقتال، ولو كانوا أقلَّ من جيش المشركين».

٦ - الوفاء بالعهد:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم أنه لا عهد بينك وبينهم على السواء؛ فإن الله لا يحب الخائنين.

سنة تهيئة الله تعالى للأسباب

إذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه. قال الله تعالى في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾، قال الرازي: «والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان في غاية البعد عن العقول إلا أنه تعالى لطيف، فإذا أراد حصول شيء سهل أسبابه فحصل وإن كان في غاية البعد عن الحصول».

وإذا أراد الله إحقاق الحق وإبطال الباطل هيَّأ لذلك أسبابًا تتعلق بمشيئة الإنسان، فينشئ الله في نفوس أهل النصر عوامله، ويوجد في أهل الهزيمة أسبابها، كما حصل لليهود فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وكما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾، فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، فحين ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم، ولما استيقظوا وجدوا نشاطًا يكسب الشجاعة ويزيل الخوف.

هذا ونسأل الله تعالى أن يبصرنا بالحق وأن يحملنا ويعيننا عليه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

المحتويات

مقدمة..... ٥
منزلة معرفة السنن ٨
سُنة الأخذ بالأسباب..... ١٢
سنة الجزاء من جنس العمل..... ١٧
سنة الابتــلاء..... ٢٤
سنة إهلاك الأمم..... ٣٠
سنة النصر والتمكين..... ٣٣
سنة تهيئة الله تعالى للأسباب..... ٤٥

المربي

markaz.almurabbi@gmail.com